بسم الله الرحمن الرحيم خطبةالجمعة **10.12.10**

اذاخلوابمحارم الله انتهكوها

الحمد لله السميع العليم، يعلم السر وأخفى وهو بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والصلاة والسلام على سيد الأتقياء، وإمام الصالحين الأولياء، خير الرسل والأنبياء

امابعد

فلا يزال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بين الخطأ والصواب، والحسنة والسيئة - إلا من عصم الله - حتى يلقى ربه، فيجد ما عمل حاضراً {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}الكهف 49

تعرض الأعمال على الله فلا تخفى منها خافية، هناك وفي تلك الساعة يتذكر الإنسان ما قدمت يداه، وينظر ما عملت يمينه ويسراه، فتخرج الفضائح، وتبلى السرائر، ويفاجئ كل عامل بما أسرَّ وأعلن، يذكِّره الله - تعالى - بكل صغيرة وكبيرة {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}القمر 53

حينئذٍ تظهر الحقائق، فيبرز للناس رجال على هيئة أهل الدين والصلاح، لم يكن يرى منهم إلا كل خير، ولهم أعمال كجبال تهامة؛ لكنها تذهب كلها يوم القيامة هباء منثوراً؛ بعد التعب والنصب، والجد في العبادة والاجتهاد في الدنيا، فما سبب ذلك وعلته؟

يبينها المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه - رحمه الله - عن ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً؛ فيجعلها الله - عز وجل - هباءً منثوراً))، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم!! قال: ((أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))رواه ابن ماجه

وما أهم أن نتأمل هذا الحديث العظيم الذي يكاد قلب السامع له أن ينفطر خوفاً أن يكون ممن اتصف بشيء مما فيه، حين يأتي يوم القيامة وهو فرح بما قدم من الصالحات، مطمئن بما عنده من القربات، واثق بما بذل من جهود وأعطى من هبات!!

وإذا كان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثوبان - رضي الله عنه - يخاف أن يكون منهم، ويحذر أن يكون من جملتهم؛ فماذا سنقول نحن والتقصير قد ملأ حياتنا، ومنسوب الإيمان قد قلَّ في قلوبنا - إلا من رحم الله -؟

يقول ثوبان - رضي الله عنه - : صفهم لنا، جلهم لنا، فيجيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بما لم يكن في الحسبان، ويخبر - بأبي هو وأمي - أنهم من المسلمين، ولهم من الأعمال الجبارة ما لهم؛ من قيام الليل، وصدقة، وصيام؛ لكنهم جعلوا الله - عز وجل - أهون الناظرين إليهم عندما راقبوا الناس، فعملوا في الظاهر ما يخالف الباطن، ونسوا أو تناسوا أن الله بكل شيء عليم، وأنه {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}المجادلة 07

وما أهم أن يتذكر كل واحد منا ذلك، وأن يربي نفسه على الخوف من الله في السر والعلن {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}الملك-12 - ولنقرأ ما جاء في فضل مراقبة الله - جل في علاه - من النعيم المقيم، والحبور والسرور {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}الرحمن-46- وقال - تعالى -: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}النازعات-40-41

وإن مكر الله - تعالى - لا يأمنه إلا الخاسرون الذين يمكثون على معصية الله، وارتكاب محارمه؛ حتى يفجأهم بأمره الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}الاعراف-99- وها نحن نجد من الناس من كان قد ظهر عليه الصلاح والتدين، ولا يخرج من فمه إلا كل حسن من الكلام، ممن كان من المسارعين في الطاعات؛ وبعد كل ما كان عليه من خير وصلاح فجأة نراه قد غيَّر مسيرته، وانقلب على وجهه، وتنكب الصراط الذي كان من أهله، واعتراه الحور بعد الكور، واجتالته الشياطين، واقتحمت ساحته جنود إبليس اللعين!

ولو تأملنا في أغلب من كان هذا حاله، وسألنا عن سببه تغيره؛ لوجدنا ذنوب الخلوات هي من كانت تنخر في دينه، حتى هـــزل عمله وضعف - وإن كان الناس يرونه حسناً -؛ ويلقاه يوم القيامة هباء منثوراً - نعوذ بالله من هذه الحال، ومن أحوال أهل النار -، وقد أجمع العارفون بالله بأن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات يقول ابـــن رجب الحنبلي - رحمه الله -:"وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس؛ إما من جهة عمل ســـيء ونحو ذلك؛ فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت" وفي هذا الباب يمكن أن يدخل حديث عبد الله بـــن مســـعود - رضي الله عنه - إذ يقول: حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق: ((أن خلق أحدكم يجمع في بطـــن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقـــه وأجله، وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكـــون بينهـــا وبينـــه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها))رواه البخاري

ويفسر ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - الذي يقول فيه الرسول الله - صلى الله عليـــه وســـلم -: ((إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو مـــن أهل الجنة))رواه البخاري وأماما لا يبدو للناس فلا يعمله إلا الله الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء

إن مراقبة الله في السر والعلن مما يكسب القلب نوراً وضياءً، وما تُرفَعُ به الدرجات في الدنيا والآخرة؛ يقول الله - جل في علاه -: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}السجدة 240-وهذه المراقبة هي ما فعله يوسف - عليه السلام - عندما عُرضت عليه الفتنة، وازين له الباطل؛ فصبر واتقى، وكان من المحسنين الخائفين من رب العالمين، فوجد خير ذلك الصبر، وخير تلك التقوى في الدنيا قبل الآخرة {قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف-90-

وإن مراقبة الله - تعالى - تورث صاحبها فراسة يتعرف بها على الأمور؛ بخلاف من أسرته ذنوب الخلوات يقول ابن القيم - رحمه الله -: "وكان شجاع بن شجل الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحـــارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخط له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة، والله - سبحانه - يجـــزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك شيئاً عوضه الله خيراً منه؛ فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلـــق نور بصيرته عوضة عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة"

فالله الله في التوبة والعودة إلى الله مما كان في الخلوات، وما أخفيناه عن الناس مما لا يخفى على السميع البصير، الذي يعلم خائنـــة الأعين وما تخفي الصدور.

ولنملأ الخلوات - التي كانت لا تخلو من الهفوات - بالطاعات، والقرب من رب الأرض والسموات، لنير ما كان مـــن ظلمـــة

المعاصي في تلك الظلمات بنور التوبة والإنابة، ولنغسل ما كان من خطايا في الخفايا بدموع الندم، والرجوع إلى ذي الرحمات، فاللهم اغفر لنا أجمعين، وهب المسيئين منَّا للمحسنين، وارحمنا يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وصل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

--